الإسلام كما أنزل

مكانة الأخلاق في الإسلام

كتبه غريب الديار بتاريخ : ١٣ جمادى الأولى ١٤٤٢[1]

عند دراستنا لخطوات الحبيب صلى الله عليه وسلم في تكوين جماعة للمسلمين وجدنا أن أخلاقه صلى الله عليه وسلم الحسنة -وكلها حسنة- كان لها التأثير البالغ في قبول دعوته إلى الإسلام, فقريش قد علمت من صدقه وأمانته ما يجعلهم واثقين أنه صلى الله عليه وسلم ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله ومن ثم فهو بلا شك صادق في كونه رسول الله أرسله بدين الإسلام.

في هذا المقال سوف نحاول التعرف على مكانة وأهمية الأخلاق في الإسلام وذلك عبر المحاور التالية

- مكانة الأخلاق في الإسلام
- الجانب التعبدي في الأخلاق

مكانة الأخلاق في الإسلام

في الحقيقة نظرا للطبيعة الأكاديمية لدراسة الإسلام فإن جل التركيز يكون على مسألة التوحيد بصفتها القضية الأبرز والأهم في الإسلام, لدرجة أن موضوع الأخلاق في الإسلام صار ترفا فكريا بالنسبة لكثير من مدعي التوحيد, فالتوحيد هو بحسب منهج تعلمهم للدين الإسلامي القضية الأهم التي تعبر عن جوهر الإسلام والتي هي منفصلة كليا عن الأخلاق.

عند العودة إلى المنهج الرباني الذي علم به رسول الله الصحابة الإسلام نجد أمرا مغايرا تماما, حيث نجد الترابط الوثيق بين الأخلاق الإسلامية والتوحيد لدرجة الانصهار التام فالمسلم لله إنما يُعبَّر عنه في الوحي بأخلاقه الإسلامية الحسنة وكذلك الكافر يعبر عنه غالبا بأخلاقه السيئة التي يتصف بها, والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله سبحانه واصفا الكفار:

< قالوا لَم نَكُ مِنَ المُصَلّينَ۝وَلَم نَكُ نُطعِمُ المِسكينَ۝وَكُنّا نَخوضُ مَعَ الخائِضينَ۝وَكُنّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدّينِ < [المدثر: ٤٣-٤٦]

---

[1]

لاحظ كيف جعل من صفاتهم عدم إطعام المسكين الذي هو في الأساس أخلاق، وليس معتقد بالمعنى الأكاديمي للمعتقدات، سببا في دخولهم النار يعدونه مع الكفر بيوم الدين، حيث أنهم قدموا ذكر الأخلاق السيئة التي كانت عندهم على الكفر بدين الإسلام

كذلك نجد ربنا يأمر نبيه بعدم طاعة الكافر واصفا الكافر بأسوء الأخلاق حيث قال:

﴿ وَلا تُطِع كُلَّ حَلّافٍ مَهينٍ۝هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَميمٍ۝مَنّاعٍ لِلخَيرِ مُعتَدٍ أَثيمٍ۝عُتُلٍّ بَعدَ ذلِكَ زَنيمٍ ﴾ [القلم: ١٠-١٣]

كل هذه أوصاف خلقية بحتة، ومع ذلك هي مرتبطة ترابطا جذريا بالمعتقد الكفري الذي يناقض الإسلام، بمعنى أن هذه الأخلاق السيئة هي التجلي الظاهر لذلك المعتقد المعاند لحاملها الذي يخبرنا عنه ربنا في قوله:

﴿ إِذا تُتلى عَلَيهِ آياتُنا قالَ أَساطيرُ الأَوَّلينَ ﴾ [القلم: ١٥]

نفس الأسلوب السابق أي نعت الكافر بأخلاقه وترتيب العذاب عليها نجده في قوله سبحانه:

﴿ وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ۝الَّذي جَمَعَ مالًا وَعَدَّدَهُ ﴾[الهمزة: ١-٢]

فهذه أخلاق من لا يؤمن بالموت والنشور حيث أخبرنا عن هذا الدافع لهذه الأخلاق السيئة في قوله:

﴿ يَحسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخلَدَهُ ﴾ [الهمزة: ٣]

مثال الآخر يثبت التطابق بين سوء الأخلاق والكفر وهو قوله:

﴿ أَرَأَيتَ الَّذي يُكَذِّبُ بِالدّينِ۝فَذلِكَ الَّذي يَدُعُّ اليَتيمَ۝وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ المِسكينِ۝فَوَيلٌ لِلمُصَلّينَ۝الَّذينَ هُم عَن صَلاتِهِم ساهونَ۝الَّذينَ هُم يُراءونَ۝وَيَمنَعونَ الماعونَ ﴾ [الماعون: ١-٧]

فالتكذيب بالدين الذي هو معتقد كفري يترجم عمليا بدفع الأيتام وظلمهم وعدم الحض على طعام المسكين التي هي أخلاق، كذلك انقطاع الصلة مع الله تترجم عمليا بالرياء ومنع الماعون.

في المقابل عند الحديث عن الإسلام وصفات المسلمين نجد في الكتاب والسنة أن الإسلام إنما يتجلى في حسن الأخلاق فقد روي عن رسول الله صلى عليه وسلم يقول فيه:

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

وهذا ربنا يتحدث عن صفات المتقين الذين أعد لهم مغفرة وجنة عرضها السموات والأرض فيقول:

< وَسارِعوا إِلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّماواتُ وَالأَرضُ أُعِدَّت لِلمُتَّقينَ۝الَّذينَ يُنفِقونَ فِي السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ وَالكاظِمينَ الغَيظَ وَالعافينَ عَنِ النّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحسِنينَ۝وَالَّذينَ إِذا فَعَلوا فاحِشَةً أَو ظَلَموا أَنفُسَهُم ذَكَرُوا اللَّهَ فَاستَغفَروا لِذُنوبِهِم وَمَن يَغفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَم يُصِرّوا عَلى ما فَعَلوا وَهُم يَعلَمونَ۝أُولئِكَ جَزاؤُهُم مَغفِرَةٌ مِن رَبِّهِم وَجَنّاتٌ تَجري مِن تَحتِهَا الأَنهارُ خالِدينَ فيها وَنِعمَ أَجرُ العامِلينَ >[آل عمران: ١٣٣-١٣٦]

فأهل الإسلام المتقين هم الذين يتصفون بهذه الأخلاق:

- خلق الإنفاق على الخلق
- خلق الحلم والمتمثل في كظم الغيظ
- خلق العفو عن الناس
- خلق التواضع لله والإنابة إليه سبحانه

ولو تتبعنا القرآن والسنة, لوجدنا أن الإسلام لم يترك خلقا حسنا إلا حض عليه وأمر به وكان الإسلام يتجلى فيه, ولم يترك خلقا سيئا إلا حذر منه وكان منافيا لحقيقة الإسلام.

قبل أن أختم الأمثلة التي في الحقيقة يصعب حصرها نظرا لكونها جل الوحي, نأخذ المثال التالي الذي يعكس أن الأخلاق هي التجلي العملي لمعتقد الشخص, فإن كان مؤمنا كانت أخلاقه حسنة وإن كان كافرا كان أخلاقه سيئة, إنه قل الحق سبحانه:

>إِنَّ سَعيَكُم لَشَتّى۝فَأَمّا مَن أَعطى وَاتَّقى۝وَصَدَّقَ بِالحُسنى۝فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسرى۝وَأَمّا مَن بَخِلَ وَاستَغنى۝وَكَذَّبَ بِالحُسنى۝فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسرى< [الليل: ٤-١٠]

والآيات صريحة وواضحة في الترابط بين الإيمان بالآخرة والإنفاق والعكس صحيح أي الترابط بين الكفر بالآخرة والبخل.

أي أنه لا إيمان صحيح إلا مع خلق حسن يتجلى فيه, فلا يمكن أن يكون المرء مؤمنا وهو سيء الخلق كما يتصور البعض.

الجانب التعبدي في الأخلاق

الأخلاق في الإسلام ليست مجرد صفات حسنة يتصف بها المرء وإنما هي أوامر ربانية يطيعها المرء رجاء رضوانه سبحانه وخوفا من عذابه, أي أنها عبادة يتعبد الله بها ولذلك هي تعكس الإيمان الصحيح الذي ينجي صاحبه من عذاب الله

من الأدلة الكثيرة على الجانب التعبدي في الأخلاق قوله سبحانه حاكيا عن المؤمنين:

< إِنَّما نُطعِمُكُم لِوَجهِ اللَّهِ لا نُريدُ مِنكُم جَزاءً وَلا شُكورًا۝إِنّا نَخافُ مِن رَبِّنا يَومًا عَبوسًا قَمطَريرًا۝فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ اليَومِ وَلَقّاهُم نَضرَةً وَسُرورًا۝وَجَزاهُم بِما صَبَروا جَنَّةً وَحَريرًا > [الإنسان: ٩-١٢]

وقوله سبحانه:

< إِنَّ المُسلِمينَ وَالمُسلِماتِ وَالمُؤمِنينَ وَالمُؤمِناتِ وَالقانِتينَ وَالقانِتاتِ وَالصّادِقينَ وَالصّادِقاتِ وَالصّابِرينَ وَالصّابِراتِ وَالخاشِعينَ وَالخاشِعاتِ وَالمُتَصَدِّقينَ وَالمُتَصَدِّقاتِ وَالصّائِمينَ وَالصّائِماتِ وَالحافِظينَ فُروجَهُم وَالحافِظاتِ وَالذّاكِرينَ اللَّهَ كَثيرًا وَالذّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَغفِرَةً وَأَجرًا عَظيمًا > [الأحزاب: ٣٥]

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على وجوب الأخلاق الحسنة نظرا لأمر الله بها والترغيب فيها بالمغفرة والأجر العظيم